من التسامح السلبي إلى التسامح الإيجابي

أحمد عبد المعطي حجازي *

من المؤكد أن الغربيين سابقون في الحديث عن التسامح والدعوة والتضحية في سبيله، وهذا يُحسب لهم، لكن السبب في هذا السبق يحسب عليهم، وهو التعصُّب الشديد الذي عانوا منه وكانوا أحيانًا أداة من أدواته أكثر من ألف عام، حين أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية، بالصورة التي تبنَّتها كنيسة روما واعتبرتها العقيدة الصحيحة التي لا يجوز لأحد أن يخالفها بأي صورة من الصور. ومنذ ذلك الوقت – أواخر القرن الرابع الميلادي– تعرض أصحاب الديانات الأخرى والمذاهب المسيحية المخالفة لاضطهاد شديد، وأصبحت المُواطَنة مشروطة باعتناق المسيحية الكاثوليكية، وصدرت القرارات التي تقضي إحراق المتهمين بالإلحاد وبالرِّدَّة، وأُنشئت محاكم التفتيش التي كانت تحقق مع مَن يجرؤ على التعبير عن رأي مخالف، وفي مقدمة هؤلاء المشتغلون بالثقافة.

هذه المحنة الرهيبة لم يستطع الأوروبيون الغربيون أن يخرجوا منها، إلا بعد أن ظهر مارتن لوثر في القرن الخامس عشر وعارض الكنيسة الكاثوليكية، ودافع عن حرية العقيدة، ودعا للفصل بين الدين والدولة، وطالب بإلغاء محاكم التفتيش. وهكذا ارتفعت الأصوات الداعية للتسامح وطالبت بإلغاء محاكم التفتيش. وأصبحت حركة واسعة دخلت في معركة طويلة مع الكنيسة انتهت بانتصارها في القرن الثامن عشر. وفيها تخلص الأوروبيون الغربيون من المِلكيَّات المستبدة وأسسوا نُظُمهم الديمقراطية، وفصلوا بين الدين والدولة، ودافعوا عن التسامح بصورته الإيجابية التي لم يكن يعرفها من قبل.

* شاعر وكاتب – مصر.

كان التسامح بالمعنى القديم يعني تجاهل الخطأ والتغاضي عن الإساءة، وهذا ما كانت تعبر عنه الكنيسة الكاثوليكية حين عرَّفت التسامح بأنه "السماح السلبي بالشر". وهو تعريف يحرض على التعصب واستخدام العنف مع المخالفين، الذين سيُنظر إليهم باعتبارهم أشرارًا في مقابل الأخيار الغيورين على الحق المدافعين عن الصواب.

ويبدو أن التسامح بهذا المعنى لم يكن مجرد تعصب ديني، وإنما كان ثقافة عامة مُتضمَّنة في الكلمة المعبرة عن التسامح، وهي في اللغة الفرنسية Talérana ومن معانيها التساهُل، والحليم، وإجازة ما نظن أنه خطأ بشيء من التوسُّع. وهي معانٍ قريبة من معناها في الأصل اللاتيني، فالكلمة اللاتينية تدل على الصبر وعلى تحمُّل الألم والإشارة من بعيدٍ لفعلٍ قبيحٍ كما نرى في هذه العبارة Maison de Tolerance؛ أي بيت سيِّئ السمعة. هذا المعنى السلبي أخذ يتراجع في عصر النهضة الأوروبية ليحل محله شيئًا فشيئًا المعنى الإيجابي للتسامح، وهو قبول الآخَر. والآخر هنا ليس المختلف في الدين فقط، وإنما هو المختلف في الدين، والسياسة، والعِرْق.. وهو وضع لا ينفرد به إنسان فردًا كان أو جماعة. لأننا جميعًا مختلفون بعضنا عن بعض، فإذا تسامحت أنا مع من يختلف معي فهو أيضًا يتسامح معي، في الوقت ذاته أختلف معه أو أختلف عنه.

والتسامح إذن ليس مِنَّةً من أحد أو من جهة، وإنما هو شرط من شروط الديمقراطية وحقوق الإنسان.

فإذا نظرنا إلى التسامح في الثقافة العربية فسوف نجد اتفاقًا واختلافًا. وأول ما نلاحظه في الكلمة العربية أنها مبنية بصيغة تدل في معنى من معانيها على المشاركة. فالتسامح في هذه الصيغة تسامح متبادل وليس فعلًا موجهًا من شخص أو من جهة إلى شخصٍ آخر أو أشخاص آخرين، وإنما هو فعل يؤديه المشاركون فيه؛ لأنهم متساوون أو لأن من حقهم وواجبهم أن يكونوا متساوين.

التسامح إذن في اللغة العربية تسامح إيجابي يشارك فيه الجميع، وهو فضيلة من الفضائل التي يتغنى بها العرب في شعرهم وأدبهم؛ لأن المعنى الأول للتسامح في اللغة العربية هو الجُود أو الكرم. والتسامح أيضًا هو التساهل، والاتساع، والصفح، والملاينة. وفي هذه المعاني ما يتفق مع ما نجده في اللغات الأوروبية وفيها ما يختلف عنها، فالكرم مَودَّة وسَعَة

ورحابة؛ لكن الصفح عفو عن الذنب. وبهذا المعنى يكون التسامح تنازلًا يصدر عن طرف قوي أو عن صاحب حق نحو طرف آخر، ويكون من حق الطرف القوي ألَّا يتسامح وأن يتمسك بما يعتقد بأنه حقه.

وفي الإسلام لا وجود للسلطة الدينية، والعلاقة بالتالي بين الله والإنسان علاقة مباشرة لا تتحقق بواسطة تفرض على الناس ما تراه، «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» [سورة البقرة، من الآية: ٢٥٦]. ومن هنا وُصِف الإسلام بأنه الديانة السَّمْحَة؛ أي الرَّحْبَة غير المتشددة.

والإمام محمد عبده يحدثنا عن تسامح الإسلام أو عن سماحته في كتابه "الإسلام دين العلم والمدنية"، فيقول إنه أخذ بيد القارئ الآن – ١٩٠١ – ودخل به بيتًا من بيوت العلم في القرون الهجرية الأولى، فوجد الإمام البخاري حافظ السُّنة بين يدَيْ عمران بن حِطَّان الخارجي يأخذ منه الحديث، وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدَي الحسن البصري شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه، والإمام أبا حنيفة أمام الإمام زين بن علي (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه. كل منهم يقبل الآخر ويتعلم منه.

وهذا التسامح الذي يتعامل به الإسلام مع المسلمين يتعامل به مع غير المسلمين، الذين يعترف لهم الإسلام بحقهم الكامل في أن يختلفوا وأن يتعددوا "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا. وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ" [سورة المائدة، من الآية: ٤٨].

ولا شك في أن التسامح كان ثقافة سائدة في المجتمعات الإسلامية التي تعددت فيها الانتماءات الدينية والعرقية والثقافية، واستطاعت مع ذلك أن تتعايش وتتحاور وتبني هذه الحضارة التي ازدهرت في القرون الهجرية الأولى. وقد عبَّر أمير الشعراء أحمد شوقي عن هذه الثقافة في مجلس السَّمَر الذي تبدأ به مسرحية "مجنون ليلى"؛ حيث يدور الحوار بين أنصار الأمويين من جانب ومنهم ليلى وأنصار الحسين بن علي من جانبٍ آخر، ومنهم الشاعر ابن ذُرَيْح الذي يقول:

ما الذي أضحك مني الظبيات العامرية

ألأني أنا شيعي وليلى أموية؟

اختلاف الرأي لا يُفسد للوُدِّ قضية!

لكن هذا التسامح الذي تعبر عنه هذه النصوص لم يعمل به دائمًا في المجتمعات الإسلامية؛ لأن الصراع على السلطة والتشبث بها ومنافقة الغوغاء كانت تدفع الحكام للتضييق على المفكرين وأصحاب الرأي والفرَق المخالفة والديانات الأخرى. ونحن نعرف ما حدث للإمام مالك على يد المنصور الخليفة العباسي، وما حدث للإمام ابن حنبل على يد المعتصم، وما حدث للحلَّاج، وما حدث للسهروردي، وما حدث لابن رشد، ونعرف ما حدث لفرج فوده، وما حدث لنصر حامد أبو زيد، وما حدث لنجيب محفوظ. والقائمة حافلة بأسماء كثيرة. والحاجة ماسَّة للتسامح. لأن الحاجة ماسة للحرية التي بدونها لا يكون عقل، ولا يكون تفكير، ولا يكون تقدم، ولا تكون حياة.